



تأملات في مقدّس الممارسة الثقافية وممنوعاتها بالمغرب

عبد الحميد عقار

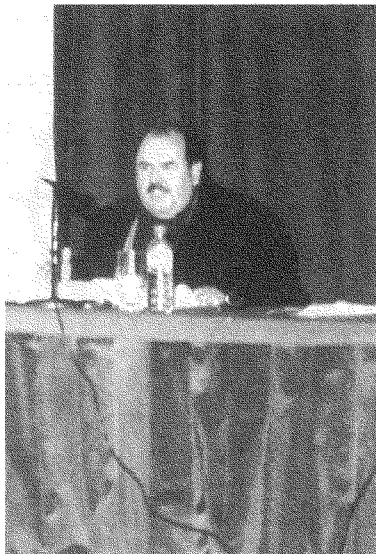
يلتفت الكاتبُ إلى الماضي، لحظة انشده إلى مستقبل مبهم، بغير قليل من الارتباك والدهشة ومعاودة التطلع. وهو يفعل ذلك محفّراً برغبة مزدوجة: رغبة في تأنيث الوجدان بصور من ذلك الماضي ويقاياه الموشومة في مجاهل الذاكرة؛ ورغبة أخرى في إضفاء المعنى على حاضر أناه. وفي التأنيث والمعنى معاً ما يسوّغ تأرجح الكتابة بين رضوان مبعثه ما يُشبه اليقين، وقلق منبعه ما يحْمِل على الريبة والتساؤل. إذْكَ تَنْهَض الذكرى سواغاً للغصص والخيبات، وإيقاظاً للسؤال عن الحاضر والمآل. ويمسي التذكُّر ملتقى توتّر عنيف بين الما قبل والآن. ومن لحظة التوتُّر هاته ينبجس ويميضُ ذلك الآتي المجهول المفتوح على كلِّ الاحتمالات.

غير أنّ عملية التذكُّر ليست بريئة: فقد يَحْدُثُ أحياناً أن تُنسب من بين ثقوب الذاكرة بعضُ مكنونات منطقة البياض والنسيان، تلك التي يحْكُمها مبدأ الإقصاء. فبينما كنتُ أَلْمَمُ عناصرَ هذه التأمّلات باستقطار المحفوظ والمدوّن معاً، انتالت عليّ الصور والرؤى الناوية في غياب الذات ومناطقها الظليلة، وظلّت الواحدة منها تغالبُ الأخرى وتَدْفَعُ بها إلى الظلّ من جديد. وفيما توأصّل الانتثيال اشتدّت المغالبة وتساوَع إيقاعها. لكنّ أيام الدم المباح والحظر المشاع بالجملة هي التي استأثرتُ بالمشهد، وكان أن سَوّتُ هذه الحروف إحدى ليالي تلك الأيام شذراتٍ ومشاهد، ناسجةً إيّاهما نصين في واحد:

من ليالي الدم المباح

في ليلة تقع بين الحادي عشر والرابع والعشرين من يناير ١٩٨٤ هبّ على الذات حنينٌ عاصفٌ إلى مغازلة نخيّل الرباط في وحشتها، وفي النفس هذا الرجع: «الغربة في الغربة أنسٌ ومسرّة». اجتاحني هذا الحنين وأنا ألتهم الكلمات الأخيرة من مقال نقديّ استغرق منّي اليوم كلّهُ، وكان بعنوان: «مرجع مركّب: الديكتاتور من منظور أليخو كارپانتينييه، وميغيل أنخيل أستورياس، وغابرييل غارسيا ماركيز».

ما إنْ لحتُ النخيل على مرمى البصر حتى بدا مكتئباً. كان واضحاً أنّ الأمر يتجاوز الشعور بالوحدة إلى الإحساس بالحصارة: فقد اصطفّ على جنباته قومٌ طوال القامات، كالحو الوجوه، مدجّجون بالخوذات والهرارات، بين الواحد والآخر مسافةٌ موزونةٌ مقفأة، وأمامهم واحدٌ أكرشٌ يذرع الأرض جيئةً وذهاباً ويبدو في عجلة من أمره.



عبد الحميد عقار: منعت السلطات مجلته الجسور في بدايات الثمانينات

بسرعة ففزت إلى ذهني صورة «الكوم» [وهو كائنٌ يتم تخويفُ الأطفال به - عبد الحق لبيض] تحكيها الأمهاتُ في النصف الأول من الخمسينيات لتخويف الصغار وإغرائهم بأن يتحصنوا داخل البيوت قبيل مغيب الشمس. كان الكوم أيضاً من ذوي الأبدان الفارعة الطول، واللون الفاحم، والقهقهات المهترئة. وقبل أن تمتلكني عذوبة الحكايا، صرّخ في صوتٍ يغرور ظاهر: «أسي محمد؟» إنه صوتٌ شرطيّ مداوم، سمرته قوية، ولا يكاد يترجّ واجهةً زجاجيةً تُغمرها صورٌ مختلفة الأحجام والهيئات. تجاهلتُ النداء. لعن الشرطيّ أخطأ في الاسم، أو لعنتي لست المعنيّ. ولكنّه في رمشة عين اعترض طريقي. احتدّت لهجته قليلاً:

- فَقَدْتُ سَمْعَكَ؟

- مساء الخير أولاً.

- لا مساء الخير ولا صباح الليل! البطاقة!

وبينما هو يتفحصها ويعيد التفحص من الجهتين، تساءلت: هل يختلف مضمونُ ما هو مكتوب بالإفريقية عما هو مكتوب بالعربية؟ ودون أن أنتظر الجواب أو يسعفني بالأحرى، سرح الذهنُ بعيداً مرتداً بي القهقري نحو هنيئات لم أتبين زمنها. في نقطة ما من رحلة الشرود هاته، برز ذلك الشيخُ بوجهه اللتحي ولباسه الأبيض المخلط بالبنّي والرمادي، وحوله أطفال كثيرون متحلّقون تحجب الألاويح أوجههم، وتتعالى أصواتهم بالتهجي والترتيل دفعةً واحدة: فيما يصغي هو إليهم جميعاً، فينهر هذا، ويوقظ ذاك، ويصحح للآخر، ويرد التحية على مارٍ عابر. وإذا أُستلم منه لُوحى بعد أن صحّحه وضبط علامات الوقف من الوجهين، صرّت أستظهر من سورة النمل وأرثل في نفسي: ﴿حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾.

سليمان، النمل، الكوم: عواملُ حبكة راقية من دون شك، في بنائها من المتعة على قدر ما يتيح من التأمل. الكوم في انتظار الإشارة. النمل يتلافي أقدام الجند المصفحة. لقد تاهب الكوم، وأخذ النمل يحاول ذلك، وانطلقت حركة التميرين والدورة والنصف دورة. تسارع الديبب وانفرط الصف. أما سليمان فبدأ منهمكاً في الشؤون السماوية غير عابئ بالشؤون الأرضية، لولا نظارة سوداء غير مألوفة، ولولا عودة التجعيدة وثنيات الجبهة إلى البروز وهي تكاد تبوح بما لم يُقل بعد في حضرة سيبا. سيبا؟ أتطقت سيبا؟ أبصنعاء أنا أم بالرباط؟

«لا. الليلة لم تفقد سمعك فقط، بل عقلك أيضاً على ما يظهر»، زمجر الشرطيّ الأسمر وتابع: «ما علينا. أنت قريب من هنا. يا الله بسرعة، إرجع منين جيت». حاولت أن أقول له: «قبل ساعتين شاهدتُ النشرة المسائية، لم أسمع منها ما يفيد الحاجة إلى الامتناع عن النزهة والتجوال ليلاً». شاهدته وقد هامت به فصاحة الألفاظ الدبوانية ورنيئها. وأطلق العنان لحنجرته كما لو أنه فوق منبر فصاح:

À L'INSTANT MÊME OÙ
ON VOUS MET LA MAIN
DESSUS, VOUS CESSEZ
D'ÊTRE UN HOMME.
VOUS ÊTES UN NUMÉRO
À L'OMBRE DES MURS
DOUILLETS D'UN DE
CES LIEUX D'ONS
DISCRETS. PAS DE SOUCI
À SE FAIRE,
IL EN EXISTE UN PEU
PARTOUT DANS LE PAYS.
YA DE LA PLACE POUR
TOUT LE MONDE...
DAR MOQRI,
LE COMPLEXE KALAAT
MAGOUNA, DERS MOULAY
CHÉRIF, ET BIEN
D'AUTRES ENCORE.
C'EST DANS CE DERNIER
QUE NOUS ALLONS
VOUS ACCUEILLIR.
VOTRE ODRAT SERA
FORTEMENT SOLlicitÉ
PAR UN MÉLANGE
SUBTIL DE RENERFÉ,
DE SUEUR, D'URINE.



من رسوم عبد العزيز مريد في سجن الثمانينيات

- بلادنا اليوم أعظم بلاد، من حقها أن تزهو بنفسها بين الأمم العظيمة. فهي اليوم ملتقى الأجناس ومجمع القمم. نظرة السوء تلقىها عين السود وحدها، ومن أذاها هي في حُرُزٍ مكين...

وقبل أن يأتي على ما للأذن به طاقة كتمت صوته وخرجت. كتم الشرطي بدوره صوتي، واعترض على ما سأحكيه متوعداً: «شوف آسي. ليست السياسة من شغلي. هذا الكلام عاؤو لنفسك. ادخل إلى دارك دابا وباركا [أي: يكفي، والآن]». بجانبه، أخذ مَحْرَني يحرك سوطاً جلدياً وَيَعْبَثُ به، شارحاً بذلك فحوى ما فاه به المداوم؛ لعلني أكون لبيباً فأعفيهما بالانصراف من وزر الشهادة، أو عنيداً فأغتمهما جزاء الضراوة.

نمت على وقع وعيد اللسان وتحريك السياط. عند الإغفاءة الأولى تابعت لعبة المباراة بين الكوم والنمل: فبينما يُطلق الأولُ الهراوات نحو الأمام، يكون النمل قد اصطف إلى الورا؛ وفيما يقوم الكومُ بنصف دورة نحو الورا، يكون النمل قد تسلق الأشجار. يضع الكوم الأيدي على الزناد؛ يُشرع النمل صدره للضحك والبكاء. أعطيت الإشارة. انطلق وابل الرصاص يُمطر الأشجار ناراً ودخاناً. قطرات الدمع تنزل. تُزَف الدم تسيل. سعف النخيل وعراجينه تبتل ويتساقط بعضها. تَهْمَد الأرواح، فيتلاشى الضحك والبكاء. لكن صدهما يواصل الرنين والتردد. ويغمري دفة الدمع والدم. أحمل عنفاً إلى حيث لا أدري. عند الوصول قيل لي: «ها أنت في جنة الجنان، نهارها كليها، لا ياتيها الضوء ولا الطعام ولا الخبز. فيها يصبح الكائن هو الكل في الكل، من جلده يطعم وفيه ينام.» فتحت فمي وعقبْتُ: «لكن الجنة ليس فيها ليل، إنما هو نور يتلأأ»، قاله ابن منظور.

ضرب كفأ بكف وأخرج سجلاً من جيبه. بعد التمعن أمر أعوانه: «خذوا عنوان هذا البائس. لعله من المبتدئين، أو لعله من خلية أخرى لم نكشف خيوطها بعد. احموه بما معه من كراريس وانتزهوا به في جنة الجنان كي يُحسن وصفها استقبالاً ويكف عن تحريف الكلام.» وتابع أوامره: «أما الواصل إلينا فأوكلوا به من يوفي له الضيافة، فحسابه لدينا وفير. فقد تعلم ورأى وسمع وخاض في القيل والقال، وها هو يهيم بالحكي. وله أن تعصبوا عينيه إذا لم يرغب في مشاهدة الطقوس.»

في لمح البصر وجدت نفسي ممدداً فوق خشبة رؤوس مساميرها الحادة إلى الأعلى. يحيط بي سبعة أشداء عداء واحتساباً: ثلاثة منهم عن يميني، ومثلهم عن يساري، وفي أسفل الخشبة عند قدامي وقف سابعهم يراقب الأمر. كانت الوليمة دسمة. تداعت الضربات سياطاً. ثلاث تعقبها ثلاث. توالى الكلمات شتمةً بذيئاً. لسان يتلوه لسان. ومن السابع يأتي التنبيه إلى السواطين: «احذروا أن تصيبوا الرأس، فلم نقف بعد على ما بخلده. ولا بأس إن بالغتم في الاهتمام بالباقي من أعضاء البدن.» وفيما الجسد تقيده أصول الضيافة البالغة الحفاوة، تاهت الروح قليلاً بحثاً عن ملاذ أو مخرج، وتوقاً إلى مطلق الاشتهااء. والقوي القوي من يحتمي بالشهوة حين يصب عليه الزبانية سوط عذابهم؛ فلا يمتص تباريح الضرب إلا تباريح الشوق. وكذلك كان.

كانت الوليمة دسمة. تداعت الضربات سياطاً. ثلاث تعقبها ثلاث. توالى الكلمات شتمةً بذيئاً. لسان يعلوه لسان. ومن السابع جاء العدة: ست وستون جلدة ولما ينشف الجسد بعد. نَظَرَ إلى ساعته. دُونَ الفجر ساعتان. مزيداً من الأطباق إذن. وصرخت فيهم، فيه: «يا فاجرًا هات عذابك، ومث في غيظك: فقد سلمتني بوابات الشهوة كل المفاتيح.» وواصلت حديث العشق والإبحار وتوهم الشهوة المستحيلة.



من رسوم أخرى لمريد

كانت الحفاوة سخية. تضاعفت الضربات سيّاطاً. ستُتَقَدِّمُها ستُ. ارتفعت الكلمات شتماً بذيلاً. لسانٌ يُسكته لسان. ومن السابع جاء الختم: «إن لنا ماديةً من جسد الناقلين بمروج جنة الكواييس. مائة جلدة وواحدة تكفي ضيقنا اليوم. رُشُوا عليه ماءً بارداً. تمشُوا به قليلاً.»

وأراني أمشي في موكب جنائزي يجيء الناس فيه جمّاً غفيراً. في مكانٍ مستدير استدارة الواحة، تراحم الناس أفواجاً أفواجاً. وطقوسُ الدفن قائمة في صمت مهيب. ارتفعت الأصوات تهزج وتُشد. لقد أغرس الماتم في رمشة عين! تعالت الصرّخات. ولوّلت صفارات الإنذار والإسعاف. كبر الاشتباك. عمّ الصخب. طلقات... طلقات.

...

انتفضت من نومي مذعوراً. وجدت نفسي مضطجعا على ظهري وأنا أقرأ في صحيفة معدنية متحركة كُتبت عليها بالأحمر القاني: «يُحظر عليكم، وفق قانوننا، ترويض الكواييس، والتعود على احتمال الآلام، واستدعاء الشهوة وتحريضها للنيل من عزيمة تلك الآلام.» قانونكم هو فعلاً يا أبناء اللعنة والحرام. ماذا نالنا منه سوى الحظر والتقديس وملازمة البيوت والدخول إليها قبل الأوان؟

توالى الطرُق. فتحت الباب. كان هو بصلعته الممتدة بين الجبهة ومنتهى القفا، وعلى محياه علامات الخجل كالذي فوجئ بمن يُعرف بعض أشيائه الخاصة. سلّمني ورقة لا أتذكر لوئها كُتبت عليها بالأحرف البارزة: «مستعجل.» بعد ساعة من رتابة السؤال عن الأصل والفصل وما شابه، صاح أحدهم مبتهجا: «من الآن فصاعداً، عليك أن تُعبر النهر سباحة؛ فلا جسر يُعبر بعد اليوم.»

أخذتُ حبالُ المشهد في التلاقي والتعكب. ما إن انتصف النهار حتى كانت وسائل الإعلام لما وراء البحار تنقل الصدى، وتُجعل من الهمس صخباً يشوش على الابتسامة العريضة لقارئ نشرة الأخبار المشرّ بالفتوحات. في المساء كُلم سليمان الطير والإنس والجن، وشاهد الكُلّ مقارعة الصورة للصورة: فيما وراء البحار صورٌ للأشلاء والشظايا والجنث والهلوكتبر ولبعض آليات أخرى: وعلى ضفاف الأطلسي بقايا حروف، وأشلاء كلمات ماثورة بالأرقام والأسماء، ونزيف الدم «ينايِر» جديداً مجللاً بالسواد والرماد، وفي رحمه دفة نار من ربيع أت لاريب فيه. وتهتز الصورة الثانية لتعمد بالنعف والنار «منطق المشروعية الناهلة لركائزها من معين غير معين القانون.» تنجلي خيوط الحبكة عن حصار معمم. يكبر الخرق على الراقع، ويسبج الوطن الأسير الأسر في شلالات العصي والإقصاءات، ويُشيب التقديس مخالبه يُنهش - بالشبهة ويدونه - الجسد والروح.

قفزت إلى الذهن من جديد صورة الديكتاتور بوصفه مرجعاً مرجحاً للتخييل الروائي بأميركا اللاتينية. وفيما أعطف خاتمة الكلام على فاتحته يحاصرني هذا السؤال: «هل يمكن للمستبد في ثقافة ما أن يكون مرادفاً للديكتاتور في ثقافة أخرى؟» إن الفروق بينهما دقيقة وذات أوضاع تاريخية متباينة، غير أن هناك حبلأ سرياً غير مرئي يصل بينهما: إنه الطاغوت المحكوم بسلطة الإجماع على التوازن، انطلاقاً من مبدأ العنف والموافقة. وفي مثل هذا الوضع فإن القوة الأكثر متانة، على حدّ تعبير موريس غودوليه، «ليست عنف السائدين فقط، ولكنها أيضاً موافقة المسودين على سيادة الأوائل.» إن لحظة التقاطع بين العنف والموافقة هي الوضع الذي يزدهر فيه المقدس ويستعيد تطاوله. ففيها يتخلى عن اشتغاله الضمني والداخلي والذاتي، بحكم كونه يقوم على تواضع متبادل بين طرفي المجتمع ولو افتراضاً، ليأخذ في اشتغاله وضعاً خارجياً تحنكر السلطة فيه الحظر والعنف ضداً على الآخرين خارجها أو الذين هم في تعارض معها. عندئذ يصطبغ المقدس بخطاب أسطوري مشبع بالربوبية والمطلق وبممارسة عشوائية متخمة بالوعد والوعيد.

كما يبرز ذلك الروائي التشيكي ميلان كونديرا في قوله: «فحيثما تواجه السلطة تحدياً، تُنتج ألياً لاهوتها الخاص بها.» ويمثل المنع في هذه الحالة إحدى صيغ هذا الإنتاج، وقوامها «نهج النسيان المنظم.» وتصبح علاقة المقدس بالمنوع علاقة تبادلية، فيها يستمد الحظر مشروعيته وتبريره من المقدس، ويكتسب هذا الأخير من المنوع امتيازَه ونفوذه. وفي ممنوعات الثمانينيات بالمغرب أحد تجسيدات هذا الألم السعيد النابع من عمق هذا الزواج المسيحي بين العنف والموافقة، أو بين التقديس والمنع. من هنا تُدرك أهمية إشاعة الحديث عن ظاهرة المنع: فمثل هذا الاهتمام بإمكانه أن يساهم في تعرية أوليات اشتغال الموافقة بوصفها رديفاً للعنف، وفي تحرير موافقة المسودين من سلبيتها، وعنق السائدين من لاشرعيتها.

عبد الحميد عقار

سبق تعريفه ص ٦